المطبوع الثالث
طلبة السداسي الخامس
مادة الشعر المشرقي الحديث
ذة. وفاء المنصوري

قراءة نقدية وتنظيرية لمرحلة النهضة الشعرية الحديثة بالمشرق العربي :

ولادة رؤية نقدية جديدة واعية باللحظة التاريخية:

تقديم :

ابتدأ النقد الحديث حين شرع الشعراء والكتاب بالتفكير في شيء من الحرية، ويكاد يتمحور القول في النقد الحديث خلال مرحلة النهضة (التأصيلية)، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حول تغيير في المفاهيم النقدية، اثرت في تشكيل الذوق العربي الحديث ،وتجاذبت أفكاره بين الاستمرارية والثبات على القواعد والرغبة في الوثب والتجاوز. إن مفهوم "التأصيل " يدل على النواة الأولى لدخول مرحلة " النهضة الحديثة " بما تحمله هذه الكلمة من دلالة على بداية انقلاب جذري شهده العالم العربي، استجاب فيه إلى ظروف موضوعية وتاريخية وثقافية، كانت السبب المباشر في ظهور وعي ذاتي ويقظة فكرية وحاجة مجتمعية إلى الحرية والتغيير للحاق بالركب العالمي الجديد، رؤية تنظيرية جديدة كانت الأساس للدخول نحو تحول شعري وثقافي مختلف.

أ. النقد التأصيلي "لكلاسيكية المحافظة": التزام بالقديم

تأثر النقد خلال بداية مرحلة النهضة الحديثة بالمشرق باتباع ما وصل إليه تيار النهضة في العالم الغربي (إعادة اكتشاف التراث القديم وظهور الفكر الإنساني والعقلاني). فظهر ما يسمى بالنقد (الإحيائي) او التأصيلي الذي اتجه إلى التراث العربي القديم بحثا عن

مكامن التميز والتفرد والخصوصية الهوياتية التي تحدد بناء وموضوع ولغة وجمالية القصيدة العربية اعتمادا على فكرة المحاكاة للقديم أو العودة إلى النموذج الشعري، هذه الالتفاتة في بداية الأمر كانت السبيل الأنجع للانطلاق الى الأمام خاصة وانها لا تملك أسسا واضحة ولا معالم معينة، فاستشرف النقد التأصيلي (الإحيائي البعثي) المستقبل دون الانفصال عن الماضي القديم" النموذج".

انفتحت القراءات العربية خلال المرحلة على قراءات شعرية ونقدية قديمة توافقا مع الذوق العربي والرؤية الثقافية للمتلقي و تحت تأثير الصراع بين الذات والآخر، فما هي صور النقد الإحيائي البعثي؟

حصر النقد الشعري الحديث خلال المرحلة مفهوم الشعر وطبيعته في المراجع التالية:

- في مقدمات دواوين الشعراء" ديوان محمود سامي البارودي"
- كتب النقد المشتغلون بالتدريس في المدارس والكليات القائمة على البعث لعلوم اللغة والبلاغة، ونمثل لما قدمه الناقد " حسين مرصفي" توفي سنة 1889، في كتابه النقدي " الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية"، عرف الشعر بقوله " الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ومستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة".

وتعريف الشعر كما عند الناقد حسين المرصفي خلال مرحلة التأصيل ، يخالف في مفهومه التعريف القائم، المتداول على الوزن والقافية المبني على أساس القواعد والقوالب.

كما أجمل الناقد في كتابه شروطا لعمل الشعر فيما يلي:

- الملكة وهي الجبلة والطبع أو الموهبة، يقول "الشعر ليس صنعة، ولا يمكن أن يتعلم من قواعد البيانيين والعروضيين، وإنما هو قبل كل شيء موهبة وطبع".
- الحفظ من جنسه: حفظ النموذج

- يقول "يتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب"، ويقول "من كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ورديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ".
- إحياء روح اللغة، يقول حسين المرصفي "هي نظرة تعيد للصورة البيانية قيمتها ودورها الحقيقي بعد أن تحولت في نظرة المتأخرين وفي أشعارهم إلى حلي فارغة وطلاء خارجي زائف".

ويتوافق الشاعر محمود سامي البارودي خلال مرحلة التأصيل الشعري (البعث والإحياء) مع الناقد حسين المرصفي في وضع شروط العمل مع بعض الاختلاف (الشعر لمعة خيالية)، فكان موقفه النقدي علامة فارقة في الشعر العربي الحديث ، لتحول مفهومه الشعري عن المتداول المكرس للقديم من غير روح خلال مرحلة الضعف الشعري، ،لحاجته للنهوض بالشعر العربي ، ليعيد إليه أساليبه في العصور الزاهية ومعارضته له على أساليب العرب المخصوصة ، فجرى لسانه على النمط القديم على نسق النماذج الشعرية الماضية التي انطبعت في مسمعيه ، يقول:

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت   به عادة الإنسان أن يتكلما

الملاحظ أن النقد الحديث في بداية مرحلة النهضة مع الكلاسيكية المحافظة في شخص محمود سامي البارودي ، قد وضع رؤى وممارسات نصية في التنظير النقدي للقصيدة النهضوية المبنية على اساس "ثابت واصيل" ، تلقفها من اتى بعده من الشعراء امثال الشاعر احمد شوقي وحافظ ابراهيم ، مع توافقهم مع تصور البارودي للشعر ، ففتحت نافذة على التحديث الشعري ،فأعادوا الشعر الى سالف مجده معبرين عبر آلياته المتوارثة عن همومهم العامة والخاصة لقدرتهم على احتذاء الشعر القديم بوعي وتمكن .

ب. الرؤية التنظيرية الجديدة بين المحافظة ومحاولة الانفتاح على الزمن الحديث:

تهيأت الرؤية التنظيرية الحديثة للشعر العربي بالمشرق بعد مرحلة التأصيل عبر مسارات تاريخية وثقافية ومجتمعية تقاطعت فيها تطلعات الشباب المثقف بين رؤى تجاذبت بين ثقافة عربية أصيلة ، وأخرى غربية لبناء لغة وقصيدة قادرة على القول والإبداع تجمع بين ماض ثقافي مشرق ومستقبل واعد ،راهنت على إيقاع مستقبلي متقدم للكتابة

والواقع ، رؤية جديدة آمنت بان الشعر ليس ظلا باهتا للموتى ،وان عليهم التوجه نحو مسار جديد يقوم على التجديد والخلق والابتكار رغم اعتزازهم بالأصالة وحبهم للتراث ، لرفع قدرات الشعر العربي وتوجيهه نحو التحديث والمعاصرة فما هي تمظهرات الوعي النقدي الجديد الذي رافق القصيدة العربية الحديثة بالمشرق العربي ما بعد التأصيل الشعري ؟

ارتأى شعراء المرحلة الكلاسيكية الجديدة مع الشاعرين شوقي وحافظ وشعراء من العراق امثال الشاعرمعروف الرصافي وجمل صدقي الزهاوي ، أن يكون الخطاب الشعري محاكاة للواقع ،للسؤال في المصير المجتمعي والذاتي على حد سواء باستعمال الخيال والجمع بين العقل والقلب ،من غير تعارض مع مفهوم الشعر عند البارودي ،ويتجلى هذا التوافق في القضايا التالية :

1 - الشعر موهبة وليس نتاجا للتعليم والصنعة

2- العلم والخبرة لإثراء ثقافة الشاعر

3- تثقيف الجمهور وتجديد قيمه الذوقية والبحث عن شرائح قرائية جديدة:

4- الشعر عملية تخيلية: يقول محمود سامي البارودي "الشعر لمعة خيالية"،

ويقول شوقي : الشعر "خيال لعوب " كما يدعو في نفس المضمار إلى التأمل في الملك الكبير وهو الكون وأشيائه وفضاءاته، ومعايشته للواقع والحياة والعصر.

- الشعر صناعة : التشكيل الفني " المتعة"

في ضوء فهم البارودي للشعر يؤكد على الصلة الوثيقة بين الخيال واللسان يتصل خيطه بأسلة اللسان، والقصد "صناعة الشعر" تأثرا بشعراء العربية الأوائل أمثال ابن قتيبة وابن طباطبا والآميدي، واقتفى أثره تلامذته من الشباب أمثال حافظ إبراهيم الذي يقول معبرا عن موقفه من صناعة الشعر:

معان وألفاظ كما شاء أحمد طوت جزل بشار ورقة مهيار

ويصرح أحمد شوقي بعلاقة الشعر بالصناعة يقول " فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حب صناعتي".

- الشعر حكمة " الفائدة":

ويرتبط مفهوم الحكمة بوظيفة الشعر، يقول محمود سامي البارودي "فتنفث بألوان من الحكمة" والقصد بها "الخير"، "الموعظة" و"المنفعة" و "الحقيقة"، وفي نفس التوجه يقول أحمد شوقي "ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤيدها بيت من الشعر".

- ائتلاف اللفظ والمعنى:

جرى النقد خلال المرحلة مع البارودي ومن بعده على منهج النقاد القدامى في ائتلاف اللفظ والمعنى واختيار الألفاظ المستخدمة لطبيعة المعنى المطلوب وتطابق جودة الألفاظ مع جودة المعنى وقوة اللفظ وجودتها للمعنى الجزل والعميق.

الملاحظ انه لم يكن يروق لرواد المرحلة التاريخية واقعا وفنا، الاندفاع المطلق وراء النقاد الغربيين والاقتداء بآثار مذاهبهم الأدبية والأخذ منها حتى لا ينساق الشعراء في واد آخر، ويضربون في متاهات الفن، إلا بما يوافق طبيعة الواقع والذوق السائد، وأما التقليد للتصور النقدي في بناء القصيدة القديمة -كما جاء عندهم - ليس تحجرا ولا جمودا وإنما هو القراءة العميقة للتجارب المشرقة .

ج- **مسار نقدي متقدم " المدرسة الكلاسيكية الجديدة"** :

وفي مطلع القرن العشرين، وتحت ظل التيار المزاج بين التأصيل والتحديث، برزت على السطح مع رواد المرحلة ملامح تقدمية أكثر نضجا وتحررا، آمنت بانقلاب جذري للرؤية النقدية، ودعت للاشتغال بأدوات إجرائية جديدة، مع صعوبة الانفلات من خيوط الماضي النقدي الأصيل، هذا التوجه الشعري الذي استجاب لحاجة الأمة العربية المنهكة والممزقة بين سندان التقاليد القديمة ومطرقة الهيمنة الاستعمارية والتفوق الغربي، مما عاق مسيرة الشعر العربي نحو التحديث.

غير أن التأثر بالتبعية الفكرية والثقافية للغرب، والتحولات المجتمعية المتسارعة ،وثبت الرؤية النقدية في بلاد المشرق من مرحلة " التأسيس " نحو رؤية متقدمة حول ماهية ووظيفته، فجدد الشعراء في الألفاظ والأغراض والأساليب ، وكان الشاعر أحمد شوقي بحكم ثقافته واطلاعه الواسع على الثقافة العربية وتشبعه بالادب الغربي والاتصال به بشكل مباشر، وبالمبادئ الرومانسية ودعوتها الى الذاتية ،مع قدرته على تمثل الشعر الجديد ، ففي مقدمته الطويلة في ديوانه الأول "الشوقيات" نجده 1898 يدعو إلى التجديد بشكل غير مباشر ، يقول " ثم طلبت العلم في أوروبا فوجدت فيها نور السبيل ".

لقد اتخذ النقد مذهبا رأيناه جديدا خطيرا مع احمد شوقي ومن بعده حافظ ابراهيم، فقد أنزل الشعر إلى حيث استطاع أن يصور قلوب الشعب وإحساساته وأذواقه والتواشج مع الكون والحياة، وذهب الشعراء في هذا إلى أبعد مدى، يقول الشاعر حافظ ابراهيم داعيا

إلى فك القيود ورفع الكمائم استنشاق ريح آت من الشمال

آن يا شعر أن تفك القيودا قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

و لابأس أن نستدرج هنا بعض آراء الشعراء السابق ذكرهم (الرصافي والزهاوي) ونوضح موقفهم النقدي من تجديد الشعر ودعوتهم للتحول وإيجاد البديل، يقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي معبرا عن موقفه النقدي الجديد للشعر:

سئمت كل قديم عرفته في حياتي إن كان عندك شيء من الجديد فهات

والجديد حسب رأيه دعوة إلى نبذ القديم والإتيان ب "الجديد" الذي لم يسبق إليه أحد، يقول " ينظم الشاعر عن شعور عصري صادق يختلج في نفسه لا عن تقليد، فالجديد ما لم يسبق إليه أحد"، والتجديد عنده يوافق الحقيقة ويخالف التقليد، يقول "وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحياة والطبيعة متجنبا المبالغات وكل ما ليس حقيقيا".

ويعبر معروف الرصافي عن موقفه النقدي الجديد، الذي يعكس أحوال العصر وما من شأنه أن يعبر عن الواقع بكل معطياته، وكان من طليعة جيله في كسر طوق التقليد في التفكير والتعبير، يقول:

وأجود الشعر ما يكسوه قائله بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر

وإلى جانب هذه الرؤى المتقدمة لشعراء المرحلة نجد الناقد مصطفى صادق الرافعي(ولد سنة 1880 م توفي سنة 1937) في كتابه النقدي "وحي القلم" يطلب من الشاعر أن يستكشف أسرار الحياة، وأن يبتكر المعاني ويجدد فيها، ويشعر بالوجود شعورا عميقا يخالط نفسه ، وبالنظر الشامل للكون ، ويعيب على الشعر العربي القديم عدم تماسك قصائده بحيث لا تكون وحدة تامة البناء ، وعاب على الشعراء عنايتهم بالجزئيات دون الكليات ..

نخلص إلى أن التصور النقدي خلال مرحلة النهضة الحديثة، قفز قفزة جديرة بالتقدير بما يتوافق وواقع الحال، فجدد وأحدث من داخل التراث مع ما قدمته الثقافة الاوربية من تغيير في الرؤية بما يتوافق مع عصر جديد ، لا يمكن العيش فيه بعقلية محافظة ملتزمة، فكيف كانت الممارسة الشعرية خلال مرحلة النهضة الشعرية الحديثة مع رواد المرحلة .